الفكاهة في شعر طاهر أبو فاشا

في عام ١٩٨٩م. رحل عن عالمنا شيخنا وصديقنا آخر ظرفاء العصر من جيل شعراء أبوللو وهو الشاعر طاهر أبو فاشا رحمه الله ، وقد كانت البسمة والدعابة صفتين ملازمتين له لا تفارقانه . وكنا نسمع منه في أخريات حياته عبارة يرددها كثيراً ، وهي أنه أنفق عمره كله في الهواء ، يشير بذلك إلى أربعين عاماً قضاها في العمل بالإذاعة ، فقد كتب مئات الحلقات من مسلسله الإذاعي الشهير (ألف ليلة وليلة) فضلاً عن عشرات الأغنيات والأوبريتات والبرامج .

ويبدو أنه ندم على ذلك الوقت الطويل الذي لو كان استثمره في التأليف المطبوع لكان أبقى أثراً وأطول عمراً . وبخاصة أنه كان راوية وحافظاً وهاضماً لتراثنا الأدبي بعصوره المختلفة ، وكان ذا ولع خاص بأخبار الظَّراف والمتماجنين من الشعراء مما يدل على تلاقي روحه بأرواحهم على طول العهد ، برغم أنه كان طاهر السلوك وكان من لوازمه الفكهة إذا وقف متحدثاً أو خطيباً أن ينهي كلامه بهذه العبارة الظريفة : " مع تحيات أخيكم الذي قال للحَنَا : حاشا ، طاهر أبو فاشا " .

والفكاهة في شعر طاهر أبو فاشا متنوعة ، منها ما يقوم على السخرية بظاهرة اجتماعية ، ومنها ما يقوم على السخرية من أفراد بأعيانهم ، ومنها ما يمثل نقداً لأوضاع مستهجنة . فمن ذلك قصيدته التي أسماها (الحجاب) وألقاها في مناظرة أقيمت حول موضوع (السفور والحجاب) وقد كانت المناظرات علامة

مميزة في حياتنا الأدبية في مصر في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين وتعتمد المناظرة على قطبين كبيرين من أعلام المفكرين أو الكتاب أو الصحفيين يتبنى كل منهما أحد جانبي المناظرة ويدافع عنه ، وتكون مهمة الآخر تفنيد آراء صاحبه ومحاولة إقناع الجمهور بالرأي الآخر. ومن أشهر تلك المناظرات تلك المناظرة التي أقيمت حول " العلم والأدب وأيهما أنفع للناس ؟ " وكان الذي يدافع عن أهمية العلم في حياة الناي عميد الأدب العربي الراحل د.طه حسين ، وكان الذي يقلل من قيمة العلم ويدافع عن أهمية الأدب العالم الراحل الكبير الدكتور علي مصطفى مشرفة ، وقد أبلى كل منهما بلاءً حسناً فيما عهد إليه به .

والقصيدة التي نحن بصددها تبنى فيها أبو فاشا الدفاع عن الحجاب وأيد دفاعه بحجج كثيرة منها ما لبس ثوب الفكاهة فهو يتساءل هل يأتي يوم تنقلب فيه كل الأوضاع وترأس المرأة فيه الرجال ؟ .

وتتولى جلائل الأعمال ، فهذه امرأة تؤم المصلين في المساجد ، وهذه امرأة تلعب المصارعة ، وهؤلاء نسوة يعملن في دواوين الحكومة ويتركن أطفالهن في بيوتهن ويربينهم من خلال المكالمات الهاتفية !! :

يا مصر مالك تندبين | هيجت لي الشجن الكمين
تبكين حظك في الشبا | ب وأنت أم العالمين ؟!
ويح الكنانة من بنيـ | ـها أنهم بئس البنون
عكفوا على التقليد لا | متورعين مفكرين

ربـــــاه إن القـــــوم قـــــد ... ســـــفهوا وبـــــاءوا خـــــاسرين
قـــد ضـــيعوا مجـــد الجـــدود ... وأخلفـــــوا أمـــــل البنـــــين
وإذا أضـــــــاعوا الخالـــــــدا ... ت فـــــما عســـــاهم يحفظـــــون
فـــــدعوا إلى نبـــــذ الحجـــــا ... ب وشـــــوهوا خلـــــق اليقـــــين
وتغمطـــــوا نـــــور الهـــــدا ... يـــــة وازدروا الحـــــق المبـــــين
فســـطت ذئـــاب الغـــي تعـــ ... ـــبث بالفضـــيلة في العـــرين
يـــا قـــوم مرحمـــة بمصـــ ... ـــصر فـــإن مصرـ عـــلى شـــجون
مســـخت يـــد التقليـــد مـــا ... زانـــت يـــد البلـــد الأمـــين
هـــدمت مســـاحي الجهـــل مـــا ... شـــادت عقـــول المصـــلحين
حتـــى إذا اشـــتد الأســـى ... وســـجت خطـــوب المفســـدين
طعنـــت شـــبا التقليـــد مـــا ... نعتـــز مـــن وطـــن وديـــن

وتستمر تساؤلات الشاعر الساخرة وتتمادى خيالاته إلى اليوم الذي يرى فيه الرجال يطبخون في المطابخ ويكنسون المنازل ويلبسون البراقع والحجاب ، في حين تخرج النساء سافرات أو متطربشات :

فـــترى الحمـــير الناطقـــا ... ت عـــلى متـــون العـــاملين!!
وتـــرى النســـاء النـــاعما ... ت بكـــل "شـــغل " يرتضـــين
هـــذي إمـــام في المســـا ... جـــد تنصـــح المتهتكـــين

والقـــوم بـــالطرف الكحيـــ ـــل عـــن النصـــيحة ذاهلـــون
هـــذا : وتلـــك مصـــارعٌ بطـــل كـــرأي الحـــاكمين
إن رجرجـــــت أكفالهـــــا قـــالوا لهـــا عضـــل متـــين
فـــترى الأنوثـــة قـــد أشـــا حـــت وجههـــا في أي هـــون
وتـــرى النســـاء عـــلى المكـــا تـــب عـــاملات في مجـــون
فـــإذا بكـــت أطفالهـــا طلبـــتهمُ " بـــالتليفون "
في حـــال أن ذوي الشـــوا رب في الأزقـــة عـــاطلون
يـــا ليـــت شـــعري هـــل تســـو د المرهفـــات اللاعبـــين
فـــترى الرجـــال بكـــل بيـــ ـــت طـــابخين وكانســـين
وتـــرى النســـاء مطربشـــا ت والرجـــال مبرقعـــين
ويـــح الكنانـــة مـــن بنيـــ ـــهاً إنهـــم بـــئس البنـــون
بـــالله يـــا أرض ابلعيـــ ـــهم إنهـــم لا يعقلـــون
بـــالله يـــا شـــهب ارجميـــ ـــهم إنهـــم لا يفقهـــون

وتبلغ السخرية عند طاهر أبو فاشا ذروة روعتها في قصيدته (أديب) التي يتناول فيها بالتهكم اللاذع واحداً من أدعياء الأدب والفلسفة فيسأله أسئلة مفحمة تذكرنا بتلك الأسئلة التي وجهها الجاحظ إلى صديقه " أحمد بن المدبر " في رسالته

الشهيرة (التربيع والتدوير) ويعتذر أبو فاشا للأديب المغرور مقدماً عما قد يقع فيه من خطأ وهو يوجه أسئلة :

نديد " أرسطو " ضريب "هوميرو " أجبني فمثلك ما أجدره
وإن أنا لم أحسن السؤل لكنَّ مثلك من يقبل المعذره
رويدك حدث فمنك الحديث على ما رأيت ، وما لم تره
فداؤك باقل ماذا رأيت " بأبجد " من معضل لم نره ؟
أفي العلم أن " الفطير " لذيذ ؟؟ وماذا ترى في " رغيف " الذرة ؟!
مسائل حيرت الباحثين وأعيت عقول ذوي المقدرة !!

ويصور أبو فاشا صاحبه على حقيقته فهو يسأله لماذا تتعاظم إذا كنت في موقف تافه ، وتتصاغر وأنت بين العظماء حتى كأنك كرة صغيرة ؟ ولماذا تنفتح كالأسد إذا أحسست بالأمان فإذا جد الجد صرت كالدجاج الرعديد ؟ :

سألتك لم أنت بين السفاسـ ـف ثبت وبين العظام كرة ؟؟
أيوم النزال ترى كالدجاج ويوم الأمان ترى قسورة ؟؟
إذا الديك صاح على ربوة تأمله يوماً على مجزرة !!

ومن أشهر قصائد أبو فاشا قصيدته (رجعة إلى مويس) ومويس هذا نُهير يمر بمدينة الزقازيق ، كانت للشاعر على ضفافه ذكريات أيام الشباب حين كان طالباً يدرس بمعهد الزقازيق الديني الأزهري في أواخر عشرينيات القرن العشرين .

وقد نظم أبو فاشا هذه القصيدة في سنوات عمره الأخيرة حين مرّ على هذا النهر في إحدى سفرياته فجاشت نفسه بذكريات الشباب فتحدث عن هذا النهر حديث المحب الواله :

وصل الرَّكبُ يا نديم فهاتِ هذه رملتي وتلك رباتي
الرياض اللفاء والرفرف الخضر ومغني الصبا وملهى اللداتِ
ومغاني عمّاتك النخل فرعاء صموتاً كعهدها قائماتِ
ومويس السكران راوية الحب وساقي لحونه الثملاتِ
معبد الراهب الخليع بساطٌ للندامى وموعدٌ للغواةِ
خطر الفنُّ حوله فجثا يستغفر الحسن والعيون اللواتي
وعلى صدره بغام حنين ، وعلى شطّه عرام سقاة
أنا أيضاً من السقاة ولي في ذلك الشطّ قصتي ورواتي
فوق هذا الثرى سكبْتُ من العمر سنيناً عصرتها من حياتي
وعلى هذه الرمال تناولت كتاب المأساة والمسلاةِ

ثم يتذكر الشاعر أيام طلب العلم في شبابه بما فيها من حلو ومر ، فهو يتذكر شموخ المعهد الديني وأساتذته العظماء الكبار الزاهدين الثقات . ثم يتذكر أحد رفاقه الذي كان ثقيل الظل كأنه هامش من تلك الهوامش التي تثقل على قارئ الكتب ، وكان من لوازم رفيقه ذاك إذا تكلم أن يثور ويتصايح وينفعل ويجادل جدالاً عقيماً وتكثر حروف القاف في كلامه :

يـا سـقي الله بالزقـازيق أيـام صـبايَ النـواضر العطـراتِ
وسـنيناً كأنهـا طرفـة العـين خفافـاً مـررْن كاللحظـاتِ
يسترقن الخطى إلى شاطئ النسيان في موكب رهيب الصماتِ
مـن تـرى أيقـظ الخـواطر حـولي وأثـار المطـوِيَّ مـن صـفحاتي
وأعـاد الأيـام والمعهـد السـامق مسرـوج بـالنجوم الهـداةِ
الفحـول الأعـلام أمثلـة الزهـد وشـيخانه العـدول الثقـاتِ
ورفيـق كأنـه هـامش الشرـح إذا صـات يمضـغُ القافـاتِ
حنْـبليٌّ كأنـه الجمـل الأورق صـخَّابة كثـير اللُّتـاتِ

وكـان طعـام طـلاب الأزهـر آنـذاك – وكـانوا يلقبـون بالمجـاورين – مضـرب المثـل في الـرداءة والحطـة ، فكـان الريفيـون مـنهم يـأتون معهـم مـن الريـف بـالمش ويضيفون إليه الشطة الكمون والفلفل الأسود والخل ، ويضربون هذا الخليط حتى يسمك قوامه فيجعلونه إداماً لهم . وكان أبو فاشا رحمه الله يحدثنا عن هذا الخليط العجيب الحارق ويسميه (بغيره) إشارة إلى قول الشاعر :

ومن لم يمت بالسيوف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحدُ

وهـو في قصـيدته السـابقة لا يفوتـه أن يـذكر لنـا كيـف هـذا الطعـام النضـيج المفلفـل يسـحر المجـاورين فيتنـاولون ويتصـايحون إذا مـدت المائـدة ويتركـون المتـون والحواشي وينهالون على طعامهم ذاك فيلتهمون التهاماً :

ونضـيج مفلفـل لاذع الطعمـة يشـوي أصـابعي ولهـاتي
هـو زاد المسـافرين بـلا زادٍ وقـوتُ المحتـاج للأقـواتِ
يتصّـبى المجـاورين فنـنقض عليـه كالفـاتحين الغـزاةِ
اتْرُكِ المتن واطو حاشية السعد وأدرك شيخون قبل الفواتِ
أنـا مـن مـازنٍ ومـازن منـي والليـالي القمـراء مـن صـدحاتي

obeikandl.com